خيار واضح أمام إدارة بايدن

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

مرّت قبل أيام الذكرى الـ20 على "غزوتي نيويورك وواشنطن" اللتين نفذهما تنظيم "القاعدة" بزعامة أسامة بن لادن. استهدف إرهابيّو "القاعدة"، الذين أوتهم أفغانستان وحمتهم حركة "طالبان"، مركز التجارة العالمي بنيويورك ومواقع أخرى بينها مبنى وزارة الدفاع (البنتاغون) في العاصمة الأميركيّة.

ردّت الولايات المتحدة على مقتل نحو ثلاثة آلاف من مواطنيها الأبرياء في 11 أيلول – سبتمبر 2001 باجتياح أفغانستان مباشرة بعد وقوع هذا العمل الإرهابي الذي لا سابق له في التاريخ الحديث. من المفيد التذكير بأنّ السبب المباشر الذي جعل الإدارة الأميركيّة تتخذ قرار اجتياح أفغانستان رفض زعيم حركة "طالبان" الملّا عمر (توفّي في 2013) تسليم أسامة بن لادن. حكمت "طالبان" أفغانستان منذ 1996 وأخرجتها الولايات المتحدة من كابل ومن مناطق أخرى في 2001. لكنّ أميركا لم تستطع قتل أسامة بن لادن إلّا في 2011 في أبوت آباد داخل باكستان التي لعبت الدور الأساسي في نشوء "طالبان" بغطاء أميركي في البداية.

بعد عشرين عاما من ذهاب إدارة بوش الابن إلى أفغانستان وبعد مضي ثمانية عشر عاما على حرب العراق يصحّ التساؤل هل العالم في وضع أفضل أم لا؟ الجواب لا كبيرة

بعد عامين من اجتياح أفغانستان، ذهبت أميركا في العام 2003 إلى العراق لإسقاط نظام صدّام حسين من دون أن يكون هناك رابط بين هذا النظام و"القاعدة". خاضت حربا ثانية قبل أن تنتهي من الحرب الأولى. فشلت في أفغانستان وفشلت في العراق. لم تستطع بناء نظام سياسي قابل للحياة في أفغانستان. إذا بها بعد عشرين عاما تستسلم أمام حركة "طالبان" التي ليس ما يشير أنّها يمكن أن تتغيّر نظرا إلى أنّ ليس لديها أي مشروع حضاري من أيّ نوع. لا سياسيا ولا اقتصاديّا ولا تجاه المرأة. يظلّ السؤال الذي سيطرح نفسه في المرحلة المقبلة هل يمكن لـ"طالبان" أن تتغيّر، أي هل يمكن أن تكون أفغانستان بلدا آمنا لا علاقة له بالتنظيمات الإرهابيّة من بعيد أو قريب؟

ستكون أفغانستان بعد الانسحاب العسكري الأميركي منطقة خطيرة. لن تكون خطيرة على الولايات المتحدة وحدها، بل ستكون خطيرة على دول مثل روسيا والصين وإيران وجمهوريات إسلاميّة كانت في الماضي جزءا من الاتحاد السوفياتي مثل طاجيكستان وأوزباكستان وتركمانستان. يمكن أن تتأثّر الهند أيضا، على الرغم من أنّ لا وجود لحدود مشتركة بينها وبين أفغانستان. ليس مستبعدا أن تستغلّ باكستان "الساحة الأفغانيّة" في حربها الصامتة مع الهند. إضافة إلى ذلك، هناك اهتمام تركي بما يدور في أفغانستان نفسها نظرا إلى الارتباط المباشر لتركيا بعدد لا بأس به من المجتمعات ذات الأصول التركمانيّة في الجمهوريات الإسلاميّة التي على تماس مع أفغانستان.

ما مستقبل أفغانستان في ضوء الانسحاب العسكري الأميركي؟ أي نوع من العلاقات ستقيمه "طالبان" مع روسيا أو مع إيران، علما أنّ العداء التاريخي مع إيران تحوّل منذ بضع سنوات إلى نوع من الوفاق بفضل وجود الروابط القائمة بين كلّ من الجانبين من جهة و"القاعدة" من جهة أخرى؟

في كلّ الأحوال، كانت المغامرة الأميركية في أفغانستان فاشلة. لم تفشل الولايات المتحدة في إقامة نظام قابل للحياة في كابل فحسب، بل إن طريقة الانسحاب كانت أيضا في حدّ ذاتها كارثة كبيرة.

بعد عشرين عاما من ذهاب إدارة بوش الابن إلى أفغانستان وبعد مضي ثمانية عشر عاما على حرب العراق، يصحّ التساؤل هل العالم في وضع أفضل أم لا؟ الجواب لا كبيرة، خصوصا أنّ أفغانستان تعود إلى حضن "طالبان". إضافة إلى ذلك، ليس ما يشير إلى أن النظام في إيران تعلّم من التجارب التي مرّ فيها ومن حال البؤس التي أوصل إليها البلد الذي كان يفترض أن يكون بلدا غنيّا بكل ما يمتلكه من ثروات طبيعية ومهارات بشريّة...

يخشى انطواء أميركا على نفسها وتكرار فشلها الأفغاني، وبالتالي العراقي، في غير مكان في العالم. يخشى حصول ذلك في ظلّ إصرار إيران على استمرار مشروعها التوسّعي. ثمّة خوف على مستقبل العراق الذي عليه أن يختار، خصوصا بعد الانسحاب العسكري الأميركي القريب هل عليه الاستسلام لميليشيات "الحشد الشعبي" التابعة لإيران أم لا؟

ثمّة خوف أكيد على مستقبل سوريا، هذا إذا كان الحديث عن مستقبل سوريا، حيث أحدثت ايران عبر ميليشياتها المذهبيّة تغييرا ديموغرفيا على الأرض. بين آخر فصول هذا التغيير ما يحدث في جنوب سوريا حيث بات مطلوبا، بتواطؤ روسي، تهجير أهل السنّة ووضع الدروز تحت رحمة "داعش" كي يكونوا موضع ابتزاز مستمرّ من النظام الأقلّوي المقيم في دمشق.

ثمّة خوف على لبنان الذي صار عمليّا تحت السيطرة الكاملة لـ"حزب الله" في ظلّ رئيس للجمهوريّة اسمه ميشال عون يعتقد أن إيران ستوصل صهره جبران باسيل إلى رئاسة الجمهورية، تماما كما فعلت معه.

أخيرا، ثمّة خوف على اليمن حيث يثبت الحوثيون (جماعة أنصار الله) الذين ليسوا سوى أداة إيرانيّة أنّ الكيان الذي أقاموه في شمال البلد وعاصمته صنعاء باق إلى ما لا نهاية. أكثر من ذلك، إنّ هذا الكيان تحوّل إلى قاعدة صواريخ إيرانيّة تهدّد أمن كلّ دولة من دول الخليج العربي.

سيتبيّن في الأسابيع القليلة المقبلة إلى أيّ حد ستتأثّر السياسة الخارجيّة الأميركيّة بالفشل الأفغاني. سيتبيّن خصوصا هل لا يزال في استطاعة حلفاء الولايات المتحدة الاتكال عليها أم عليهم إعادة النظر في حساباتهم؟

الخوف كلّ الخوف أن تكون إدارة جو بايدن تتمة لإدارة باراك أوباما الذي تغاضى عن عملية الاحتيال التي مارسها الإخوان المسلمون والتي سمحت لهم بوضع اليد على مصر في مرحلة معيّنة. الأكيد أن حلفاء أميركا في المنطقة، خصوصا في الخليج فهموا الرسالة وسارعوا إلى دعم التحرّك الشعبي المصري في حزيران – يونيو 2013 والذي أدّى إلى التخلّص من نظام الإخوان. كان هذا النظام كفيلا بالقضاء على مصر وعلى دورها في المنطقة.

يبدو الخيار واضحا أمام إدارة بايدن. إنّه خيار بين أن تخلق عقدة جديدة لنفسها اسمها أفغانستان وأن ترفض السقوط في الفخ الذي نصبته لنفسها. نقطة البداية من أجل التخلّص باكرا من هذه العقدة هي في امتلاك سياسة خارجيّة أكثر وضوحا، سياسة خارجيّة لا تقوم على لافتات كبيرة من نوع مواجهة التحدي الصيني بمقدار ما تقوم على فهم ما يجري على أرض الواقع، خصوصا في ما يخص إيران والدور الإقليمي الذي تطمح إلى ممارسته على حساب دول المنطقة العربيّة كلّها!

ذهب بن لادن وبقيت البنلادنية

علي الصراف
كاتب عراقي

كما لو كان ناطقا بلسان حال كل زعماء العالم الغربي، قال رئيس الوزراء البريطاني بوريس جونسون "إن الإرهاب فشل في أن يهز إيماننا بالحرية والديمقراطية".

"الحرب ضد الإرهاب" فشلت أيضا في أن تهز إيمان الإرهابيين بأنهم يحاربون عدوا تستوجب محاربته.

الرؤيتان معا تسجلان انحرافا مشهودا عن الحقيقة وتضعان قيم العدالة والمساواة الإنسانية في محنة مؤلمة ومخجلة. ويكاد يصعب القول إن طرفي هذه الحرب سوف يتوقفان عنها، لأنها بالنسبة إليهما مسألة إيمان مطلق.

الإرهابيون الذين شنوا هجمات الحادي عشر من سبتمبر لم يرتكبوا جريمتهم ضد الحرية والديمقراطية. هذا تصور تافه، لا يستحق حتى التعليق عليه. ولكن هذا التصور كان هو السلعة التي يبيعها الزعماء الغربيون، لكي يبرروا ما ارتكبوه هم من سياسات عنف وجريمة.

لقد كان كل واحد منهم إرهابيا أسوأ من أسوأ داعشي، من حيث الأفعال. ولا أستطيع مقارنة أي زعيم غربي حمل طائراته وصواريخه ليدمر أمة بأسرها، بأسامة بن لادن.

بن لادن إرهابي متواضع، في الواقع.

أحد أوجه القسوة الغربية في الرد على جريمة الحادي عشر من سبتمبر، كان ينطلق بالذات من مشاعر التفوق العنصري. وبما أنه تفوق عسكري وتكنولوجي وعلمي ومادي، من دون أن يكون تفوقا أخلاقيا أو إنسانيا يحترم أي قيم، فقد كان من الطبيعي أن يتحول الرد إلى عمل من أبشع أعمال الانتقام وأكثرها همجية. تحول إلى غزو وحرب دمار شامل. ليس لبلد واحد وإنما لبلدين، بل وحوّل منطقة الشرق الأوسط كلها إلى رهينة لسياسات الانتقام.

الإرهاب غبي. ليس لأنه وسيلة العاجز والفاشل، وليس لأنه يعالج أزمة بأسوأ منها، بل لأنه لا يحترم القيم التي يدّعيها.

الإرهاب الآخر ظل يفعل الشيء نفسه. ومثلما ازداد الإرهاب تطرفا، حتى بات قتلا أعمى، فقد زاد إرهابيو الولايات المتحدة وبريطانيا وغيرها إرهابهم وحشية أيضا.

الحرب ضد الإرهاب لم تكن على الإطلاق حرب خير ضد شر. لقد كانت، وما تزال حتى الآن، وستبقى، حرب شر ضد شر. كل طرف فيها يدعي قيما كاذبة، ويمارس أفعالا وحشية ويوجد لها تبريرات.

"القاعدة" تراجعت لتخلي مكانها لداعش. لقد كان هذا المنعطف طبيعيا تماما. تنظيم داعش ولد من رحم الجريمة التي تم ارتكابها في العراق. لا شيء أكثر. جاءت الولايات المتحدة إلى هذا البلد لكي تدمره. وكانت تعرف تماما ماذا تفعل. ولم تكن مراكز الأبحاث في الولايات المتحدة لتغفل عن معنى أن يتم تفكيك الكيان الاجتماعي في هذا البلد ليتحول إلى طوائف متحاربة. لم يتم تفكيك الدولة وحدها. ولا تم نهب ذاكرتها التاريخية كأمة عندما تم تدمير المتحف الوطني العراقي، ولا تم هدم مؤسسته العسكرية، بل تم فوق كل ذلك تسليم قيادة البلد إلى رعاع ولصوص وأنصاف أميين ومزوري شهادات وبياعي محابس و"هتلية" من قاع المستنقع.

وماذا فعل هؤلاء غير أنهم أتموا رسالة "الحرب ضد الإرهاب" الغربية؟ ماذا فعلوا غير أن أرسوا، بما ارتكبوه من جرائم وأعمال وحشية، المبرر الواقعي لنشأة داعش؟

لا يحسن بأي أحد أن ينسى أن أسامة بن لادن ارتكب جريمته، وكان يتحدث عن فلسطين.

الولايات المتحدة ما تزال تدعم كل جرائم إسرائيل ضد الفلسطينيين. وتتغاضى عن فشل عملية السلام، وتترك للإسرائيليين أن يستولوا على المزيد من الأراضي الفلسطينية، حتى بمقاييس الخرائط المأساوية والظالمة التي انتهت إليها اتفاقات أوسلو.

لا يحسن بأي أحد أن ينسى أعمال القصف الوحشي ضد مدن الفلوجة والرمادي وتكريت وسامراء والموصل، تلك التي لم تتورع الولايات المتحدة عن استخدام أسلحة مما يقع على ضفاف ما يعتبره العالم مُحرّما، حتى قُتل نحو مليون إنسان، وتهجر نحو 5 ملايين غيرهم.

وهل كانت أعمال التعذيب الوحشية في "سجن أبوغريب" إلا شيئا وثيق الصلة بإيمان القادة الغربيين بـ"الحرية والديمقراطية"؟ وعندما افتضح أمر هذا الإيمان، فقد أوكلوا المهمة لرعاعهم الذين افتتحوا سجونا دخل إليها أكثر من 400 ألف إنسان، ولم يخرج منها شخص واحد بمشاعر إنسانية على الإطلاق. فكان من الطبيعي لتنظيم داعش أن يكون هو النتيجة.

داعش إيمان آخر لا يأبه بالعاقبة، يوازي الإيمان الذي يرتكب بتفوقه العسكري كل ما يرتكب، ولا يأبه بالعاقبة.

وبينما سمح المؤمنون بالحرية والديمقراطية أن يغتصبوا النساء والرجال (في السجون وخارجها) في العراق، فقد سمحوا لأنفسهم أن يمارسوا كل تفوقهم التكنولوجي في أعمال القتل الجماعي ضد الأفغان، ومن ثم سلطوا عليهم مَنْ عجزوا حتى عن أن يقيموا نظاما قادرا على الدفاع عن نفسه.

قليل على هذا الواقع أن يكون هناك داعش واحد. وهذا ما يحصل الآن. الداعشية التي انتصرت في سوريا، على طرفي جبهات القتال، وصلت إلى ليبيا والنيجر وموزمبيق وغيرها في أفريقيا. وستظل تتسع كنموذج للانحطاط، يناظر تماما نموذج "الحرية والديمقراطية" الزائف.

ثقافة الانتقام الوحشي التي حملت هذا النموذج إلى أفغانستان والعراق انتهت إلى أنها انهزمت بما فعلت. فعادت طالبان لتحكم، وانقلب الرعاع على راعيهم في العراق.

الداعشية الغربية هي التي أنتجت داعش. دع عنك كل الكلام التافه عن الحرية والديمقراطية. هذه الداعشية أصلٌ من أصول النظرة العنصرية؛ أصلٌ تمده القوة العسكرية والتكنولوجية والعلمية والغنى المادي بكل يحتاجه من مشاعر تفوق واستعلاء.

ذهب بن لادن، وبقيت عندنا البنلادنية. لم تكسب الولايات المتحدة معركة القلوب والعقول. فلسطين ما تزال علة العلل. والدعم الغربي لإسرائيل وتغاضيه عن جرائمها يوفر للإرهاب الفرصة لكي يغذي بها إيمانه.

في الحرب بين الشر والشر لا يوجد منتصر. الإرهابيون خسروا بضعة أنفار بينما خسرت الولايات المتحدة في أفغانستان والعراق نحو 8 آلاف قتيل وأكثر من 100 ألف جريح وثلاثة تريليونات دولار. وخسرنا نحن، بأعمال الانتقام الغربية، الملايين من الضحايا، وخرابا غير مسبوق.

يحتاج المرء إلى مخيلة عظيمة لكي يعرف مَنْ يمكنه أن يكون الفائز في هذه المحنة.

الطرف الذي سيغلب في النهاية هو الطرف الذي يستدرك إيمانا حقيقيا بقيم العدالة والمساواة والأخلاقيات الإنسانية.

الغرب، أبعد من أن يستطيع ذلك. نحن نستطيع.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk